الفصل السابع

لماذا يحصل الانحراف في فهم التوحيد والعمل بمقتضاه؟

تبين حوادث التاريخ أن الأديان ليست بمنأى عن مكر الماكرين من بني البشر؛ فالناس أنواع، فيهم الصالحون وفيهم المفسدون، فيهم أنصار العدل وفيهم أنصار الظلم، فيهم المتعلمون، وفيهم المغرقون في ظلمات الجهل، وفيهم أيضاً الطغاة والجشعون الذين لا دين لهم ولا مبدأ إلا مصالحهم، وهؤلاء وقفوا ضد نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وإخوانهم من الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم. وقفوا ضدهم وحاربوهم بكل وسيلة ممكنة.

وهناك أجيال أخرى من المفسدين لاحظت انتصارات الأنبياء وأتباعهم في أكثر من مرحلة من مراحل التاريخ البشري، لكنها لم تستسلم لها، وإنما غيرت في أسلوب مواجهتها، وركزت على إفساد الأديان من داخلها. هذا أمر يعلمه الدارسون للتاريخ، فما أكثر ما عبث بعض الحكام الطغاة بالأديان وأجبروا علماء الدين على تطويع تعاليم الدين لتوافق أهواءهم ورغباتهم.

obeikandl.com

خطر التحالف بين المستبدين والمفسدين من علماء الدين

وفي الغالب يحصل تحالف موضوعي بين الطغاة وقطاع من علماء الدين والجهلة لتحريف الأديان. الطغاة يريدون الدين على مقاس أهوائهم ومصالحهم. وقطاع من علماء الدين يستخدمون الدين لتحقيق مصالحهم ولديهم الاستعداد للاستجابة لرغبات الطغاة وأهوائهم. أما الجهلة فليس لديهم العلم الكافي للتمييز بين الحق والباطل، ولديهم القابلية لموالاة الحكام بالحق والباطل، والانخداع للمزيفين والمبتدعين في الدين.

وأحيانا لا تكون المبادرة لتحريف الدين من الحكام، وإنما من بعض علماء الدين، الذين يزايدون على الأنبياء، ويرون في أنفسهم القدرة على إعادة صياغة الدين، أو الزيادة فيه أو الحذف، ويبررون ذلك لأنفسهم بأعذار شتى، ثم يواليهم في ذلك أتباع ومؤيدون.

لذلك جاء التحذير من استبداد علماء الدين في كتاب الله في أكثر من موضع، من خلال الإشارة إلى تجارب البشر قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم، وبالتحديد إلى تورط علماء الدين في تلك العهود السابقة في تحريف أحكام الله وتبديلها أو كتمانها.

قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ (البقرة: ٧٩).

وقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ١٤٦).

كما ورد في القرآن الكريم تحذير الناس من اتباع العلماء دون دليل من الله عز وجل: ﴿ اتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ (التوبة: ٣١)

وواضح أن علماء الإسلام ليسوا معصومين وإنما تجري عليهم السنن مثل غيرهم من الناس. أي أن منهم الصالح المخلص المجتهد، ومنهم مدعي العلم من دون دراية كاملة بأصول اختصاصه، ومنهم من يجوز لنفسه تحريف أحكام الله وتبديلها أو كتمانها، طمعا في مغانم دنيوية زائلة.

والعاقل الفطن من المسلمين من لا يسلم عقله لأحد، ولا يفرط في دينه لأحد. نعم، إنه يجل العلماء ويحترمهم، ولكنه يطلب منهم الدليل الشرعي الواضح على ما يقولون براءة للذمة ووصولا إلى اليقين والإطمئنان.

بعض أسباب الانحراف عن التوحيد الخالص

تبين تجارب التاريخ أن من أهم المجالات والأمور الدينية التي يكون فيها الانحراف والتزييف، أمر توحيد الله وإفراده بالعبادة. ذلك أن أنبياء الله جميعا إنما كان أعظم أمر بعثوا به إلى الناس هو أمر توحيد الله والإقرار به إلها وربا وخالقا لا شريك له وعبادته وحده من دون شريك.

لكن المحرفين والمزيفين لديهم حساسية كبيرة من هذا الأمر، وميل مرضي إلى الابتعاد عن مبدأ التوحيد الخالص. هذا الابتعاد

قد يتجلى في تعظيم بعض البشر وادعاء علاقة خاصة بينهم وبين الله تعالى مما يبرر عبادتهم مع الله والتوجه إليهم بالدعاء مع الله، وقد يمضي أبعد من ذلك بتعظيم التماثيل والأصنام وعبادتها بديلا عن الله الواحد الأحد، أو كواسطة بين البشر والله الواحد الأحد.

لقد كان الناس قبل بعثة نوح عليه السلام على الإيمان والتوحيد الخالص، ثم انحرفوا. وتجلى هذا الانحراف، أو وقع، بسبب اتجاه بعض كبرائهم وبصفة تدريجية لتقديس أناس صالحين من بينهم. فلما ماتوا أقاموا لهم أنصابا أو تماثيل ومقامات. ومع تراجع العلم وشيوع الجهل، بدأ الناس في عبادة تلك الأصنام والاعتقاد بأنها قادرة على النفع والضر.

وتدل الحوادث والأخبار أن لدى البشر، أو لدى كثير منهم، في الماضي وفي كل العصور، نقطة ضعف هائلة تجاه من يعتقد بهم الصلاح والقرب من الله عز وجل. لدى كثير من البشر ميل تدريجي لرفع هؤلاء الصالحين الموتى فوق مكانتهم البشرية، واتخاذهم واسطة وزلفى إلى الله عز وجل، وأحيانا شركاء وأندادا لله عز وجل. ولعل من بين أسباب هذا الانحراف قوة النزعة المادية والتعلق بالمحسوس والملموس عند الإنسان، مع الرغبة الملحة في قضاء الحاجات، لذلك يلجأ كثير من العباد إلى أقرب محسوس.

التاريخ دليلنا على هذه الحقيقة. ودليلنا قبل التاريخ القول الصادق الذي نطق به القرآن الكريم واضحا لا لبس فيه. ولنأخذ مثالا على ذلك من قصة انحراف قوم النبي هود عليه السلام وخروجهم عن نهج التوحيد.

عبر من قصة قوم هود عليه السلام

في سورة هود عرض مفصل لقصة نبي الله نوح عليه السلام، وجهوده الكبيرة للدعوة للتوحيد وإقناع الناس به، وأخيرا منابذته للكفار وبناؤه للفلك ونجاته مع المؤمنين من الطوفان، وغرق الآخرين.

نجا المؤمنون من الطوفان، وأحيوا سنن التوحيد الصحيحة. ولما تعاقبت القرون بعد ذلك، أطل الشرك برأسه من جديد، أعظم ظلم يظلم الإنسان به نفسه، إذ يكفر بالذي خلقه وسواه وعدله، ويجعل له شركاء وأندادا. وسبق أن علمنا في قصة نوح عليه السلام أن ذلك وارد في علم الله عز وجل، كما تدل على ذلك الآية الكريمة: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ (هود: ٤٨).

إن الأمم المستحقة للعذاب في الآية أمم ولدت وعاشت بعد قرون من وفاة نوح عليه السلام ومعاصريه. وهم كانوا من ذرية هذه الأمة المؤمنة، لكنهم انحرفوا ولم يستطيعوا الثبات على عقيدة التوحيد الخالص.

قال القرآن الكريم يروي قصة هذا الجيل في سورة هود عليه السلام:

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ ٥٠ يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٥١ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ

رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ (٥٠-٦٠).

صدق الله ورسوله صلى الله عليه وسلم. مرة أخرى يعلمنا القرآن الكريم أن جوهر ما أرسل به النبي هود عليه السلام هو الدعوة للتوحيد الخالص: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾. وقد مر بنا هذا المعنى العظيم من قبل في سورة هود. في أولها علمنا خلاصة الرسالة التي بعث بها محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾. وبعد ذلك علمنا حقيقة ما أرسل به نوح عليه السلام: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾.

رسالة هود كانت رد الناس إلى التوحيد الخالص

ليس في الأمر غموض من أي نوع. لا يذكر القرآن الكريم عند عرضه لقصة هود أي أمر آخر دعا إليه غير التوحيد. رسالته هي رد الناس بالمنطق والحجة والدليل إلى التوحيد الخالص، ثم بيان ما ينتظرهم من الأجر والخير والفلاح عند القبول بالتوحيد الخالص والتوبة إلى الله تعالى من كل انحراف عقدي: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾. أجل، الاستغفار من الشرك، والإقلاع عنه، وكثرة الاستغفار من الذنوب بشكل عام وصفة ناجحة بيقين تقود للسعادة والقوة والازدهار، سواء تعلق الأمر بالفرد أو بالجماعة.

التوحيد الخالص، والاستغفار من الشرك، والإقلاع عنه، وكثرة الإستغفار من الذنوب بشكل عام، وصفة لسعادة الإنسان في قلبه، وتوازنه النفسي مع محيطه الصغير والكبير، ووصفة لقوة المجموعة البشرية، قبيلة، وشعبا، وأمة، باستحقاقها لهذا الوعد الصادق من عند الله عز وجل للموحدين التائبين المستغفرين.

إلى من لجأ هود وقت الضيق؟

وفي قصة هود عليه السلام فائدة أخرى: عندما تدهورت العلاقة تماما بين النبي الكريم وقومه، وكثرت مضايقاتهم واتهاماتهم الباطلة له، إلى من لجأ؟ هل طلب النصرة من نبي سابق له، أو من ولي صالح ممن كانوا مع نوح عليه السلام؟ كلا، لقد صدر منه إعلان صريح يظهر فيه توكله على الله وحده، وليس على نفسه، مع مكانته الرفيعة

العالية، أو على أي أمر آخر. قال: ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

آيات التوحيد ناصعة بينة

التوحيد هو أعظم ما يريده الله تعالى من كل إنسان، في كل زمان ومكان. وهذه القصص التي يطلعنا عليها القرآن الكريم قصص واقعية صادقة يطلب منا الاعتبار والاتعاظ بها. فلينتبه إذن كل مؤمن على وجه الأرض: أعظم شأن في القرآن الكريم يجب أن يكون أعظم شأن في اهتمامات المؤمن، وليحذر أن يجري عليه ما جرى على كثير من الذين من قبلنا: تركوا التوحيد الخالص لله عز وجل، وجادلوا أنبياءهم فأكثروا جدالهم، واتهموهم بالسعي لتحقيق أهداف سياسية أو مادية، واستخفوا بهم، وهددوهم، فما كان عاقبة أمرهم إلا الخسران المبين، كما رأينا في قصة نوح عليه السلام مع قومه، وكما رأينا في قصة هود عليه السلام مع قومه أهل عاد.

ختم عصر الأنبياء بوفاة خاتم النبيين محمد بن عبد الله -صلى الله عليه وسلم-، وبقي القرآن الكريم حجة بالغة على الناس في كل زمان ومكان. وها هي آياته تتلى علينا ناصعة واضحة بينة، تحرر عقولنا من الأوهام والخرافة والطغيان، وتملأ نفوسنا طمأنينة وسكينة وعزة، وتهدينا إلى أسرار السعادة والفلاح والازدهار أفرادا وجماعات. تلك بعض ثمار التوحيد الخالص الذي تعاقب كل الأنبياء لبيانه ودعوة الناس إليه.